خاتمة

تبقى نتيجة حرب العراق، التي دخلت الآن عامها السادس، مغلفة بالغموض وعدم اليقين. وأصاب الجنرال بترايوس حين قال إن أي مكسب يظل «هشاً ويمكن عكسه».

أما ديريك هاريف، خبير استخبارات الدفاع المتمرس وأحد المتشائمين الأوائل من احتمالات الحرب وفرص نجاحها، فقد تحول إلى التفاؤل الحذر بحلول أيار 2008. وبوصفه مستشاراً إستراتيجياً يقدم تقاريره مباشرة إلى بترايوس، وجد كثيراً من الأدلة التي تثبت أن الأسوأ قد انتهى وانقضى.

طرد رئيس الوزراء المالكي 1400 شيعياً من وزارة الداخلية؛ بسبب تورطهم في أعمال طائفية. وصحيح أن لدى المالكي نفسه ميولاً طائفية، لكن أفعاله تشير إلى التزامه مزيداً من العدالة والنزاهة. في حين انخفض عدد السيارات المفخخة من مئة وثلاثين شهرياً في آذار من عام 2007، إلى ثلاثين في أيار من عام 2008 —وهو رقم مرتفع دون شك. لكن غالبية السيارات المفخخة تنفجر عند نقاط التفتيش، ولذلك فهي توقع عدداً أقل من الضحايا. ولم تعد تنجح في التسلل إلى الأسواق المكتظة لإيقاع عدد كبير من الضحايا، مثلما كان يحدث في عامي 2006-2007، إلا في حالات نادرة.

انخفض مستوى العنف في بعض الأماكن القليلة إلى درجة أن بعض الجنود الأمريكيين لا يتلقون شارات الأعمال الحربية؛ لعدم وجود أي قتال في منطقتهم. أما جيش المهدي المسؤول عن معظم أعمال العنف الشيعية، فقد تشظى وتفكك وانقسم برأي هاريف. في حين يبدو أن إيران، التي تحاول الولايات المتحدة كبح نفوذها وصد تأثيرها، تفقد شعبيتها في العراق باطراد. إذ أظهر عدد من استطلاعات الرأي أن نسبة تراوح بين 65-70% من العراقيين ينظرون إلى إيران نظرة سلبية.

اعتقد هاريف أن التعب اكتسح العراقيين وأرهقهم، وهناك عدد متزايد من المواطنين سئموا من الحرب المستمرة منذ خمس سنين. ومع أن المشاعر المعادية لأمريكا والشكوك المتعلقة بدورها تبقى قوية وحادة، إلا أن تأييد القاعدة شهد تراجعاً مهماً. وصحيح أن الولايات المتحدة تأذت في المنطقة، إلا أن الأذى الذي لحق بالقاعدة كان أكبر، كما اعتقد. ومن الممكن تحول التمرد العراقي إلى ما يشبه الجيش الجمهوري الأيرلندي، بحيث يقدر على شن حرب عصابات في المدن، لكنه ليس قوياً بما يكفي لعرقلة سيرورة الحياة الاجتماعية والسياسية والاقتصادية.

ومثلما هي الحال دائماً، يبقى هناك كثير من المخاوف والهموم والمحاذير. فالانتخابات العراقية المقرر إجراؤها في نهاية عام 2008، يمكن أن تحدث تغييراً كاسحاً في المحافظات وفي بغداد، كما يعتقد هاريف. على سبيل المثال، لا يوجد في مجلس مدينة بغداد المؤلف من واحد وأربعين مقعداً سوى عضو سني واحد. ويمكن أن يرتفع العدد إلى ثمانية عشر مقعداً سنياً بعد الانتخابات. ومع أن ذلك قد يشير إلى المصالحة، إلا أنه يخاطر بإطلاق ردة فعل شيعية عنيفة.

هناك دوماً احتمال حدوث ما دعاه هاريف «ضربات مفاجئة»، أي أحداث مأساوية غير متوقعة مثل اغتيال المالكي أو هجوم ساحق على الأمريكان، في قواعدهم أو في المنطقة الخضراء. وما يزال دعم التمرد يتدفق إلى العراق عبر سوريا والأردن، والتحالف السوري-الإيراني أقوى من أي وقت مضى برأيه. وما تزال إيران تواصل جهودها المهلكة والمدروسة بدقة وعناية لدعم المليشيات وتدريبها وتزويدها بالعبوات الناسفة المتقدمة، والقذائف الخارقة الدروعَ، التي يمكنها اختراق أي عربة مصفحة تقريباً.

اعتقد هاريف أن المهمة الحاسمة المتمثلة بقهر إرادة العدو وإعادة بناء المجتمعات المحلية والطوائف، بحيث لا تعاود العناصر التي تمارس العنف التسلل مرة أخرى، تعد مهمة هائلة وصعبة ولم تستكمل بعد في العراق. أما الأحداث التي تذكّر أن الحياة العادية لا تزال بعيدة عن العراق، فتقع بانتظام، مثل التفجير الذي حدث في السابع عشر من حزيران 2008 وأودى بحياة خمسة وستين شخصاً، وهو أعلى رقم من الخسائر البشرية التي تقع نتيجة تفجير في بغداد منذ ثلاثة أشهر. ولا ريب في أن الغموض وعدم اليقين أكثر ثباتاً واستمراراً في العراق من الكهرباء.

يعمل في وزارتي الداخلية والدفاع –أفضل وزارتين من حيث الإدارة في الحكومة العراقية– قرابة 2500 من المستشارين الأمريكيين الذي يمسكون بزمام الأمور. ومن دونهم، سوف تعود كل منهما إلى أساليبها الطائفية المعهودة، كما يقول هاري ونبرة القلق بادية في صوته.

في هذه الأثناء، سال لعاب الصين وروسيا والهند وشركاء أمريكا في أوروبا نتيجة ما بدا أنها حالة من الإنهاك الذي أصاب الولايات المتحدة ومبالغتها في التزامها واشتغالها بالعراق. فهذه البلدان متشوقة على ما يبدو إلى اقتناص الفرص السانحة واستغلالها في منطقة الشرق الأوسط الغنية بالنفط، مما فاقم ضعف موقف أمريكا في العالم.

احتل الخبر صدر الصفحة الأولى من صحيفة واشنطن بوست في الرابع عشر من حزيران 2008: «كبار الزعماء العراقيين يصيبون جهود الولايات المتحدة بالنكسات»[1]، مما فاقم حالة الغموض وعدم اليقين المستمرة حول الحرب. فقد أعلن المالكي أن المفاوضات على وضع القوات الأمريكية في العراق «وصلت إلى طريق مسدود». ومع أن المحادثات ستتواصل، إلا أنه قال: «لا يمكن أن نمنح عفواً للجنود الأمريكيين الذين يحملون السلاح على أراضينا. لن نمنحهم العفو أبداً». وفي الوقت ذاته، أعلن مقتدى الصدر أنه يؤلّف وحدة جديدة شبه عسكرية لمهاجمة القوات الأمريكية، منهياً بذلك عملياً تعليق العمليات منذ السنة السابقة. وبدا وكأن المالكي والصدر يتنافسان على من يكون أكثر جرأة وجسارة في إبعاد اليد الأمريكية عن مقعد الدراجة العراقية.

حتى لو تحسن وضع العراق في نهاية المطاف، فإنه لن ينقذ تركة بوش وميراثه، كما يظن هاري. فقد ظل الرئيس سنوات –من عام 2003 إلى نهاية عام 2006– لا يلتزم جانب الصدق والصراحة فيما يتعلق بالتكاليف، والمدة، والتحديات التي تواجه أمريكا في حرب العراق. وبعد أن تنقل هاري بين واشنطن وبغداد مرات عديدة، تساءل متعجباً من الرئيس: «ما الذي كان يراه فعلاً؟ ولماذا احتاج إلى هذا الوقت الطويل لكي يفهم؟».

مع استكمال كتابي الرابع عن الرئيس بوش وحربيه، أعود باستمرار إلى بعض الأسئلة المفتاحية، وأهمها: كيف كان أداء بوش بوصفه القائد العام؟ هل وضع الرئيس، وطبق، نظاماً لصنع القرار يستحق التضحية التي طالب بها الآخرين، خصوصاً رجال المؤسسة العسكرية الأمريكية ونساءها وأسرهم؟ هل كان على استعداد للتحاور والتفكير في مسارات عمل بديلة؟ هل تباطأ في التحرك حين فشلت الإستراتيجيات التي اتبعها؟ هل أجرى التغييرات الصائبة؟ وهل أجراها في الوقت المناسب؟ هل تعد إدارة بوش مكاناً يحاسب فيه المسؤولون على قراراتهم وأفعالهم؟

يمكن العثور على جذور بعض من هذه الإجابات في كتابي «بوش محارباً» الذي صدر عام 2002، وقدم رواية مفصلة عن الشهور التي أعقبت هجمات الحادي عشر من أيلول الإرهابية عام 2001.

في اليوم الذي وقعت فيه الهجمات، ألقى الرئيس خطابين بدا فيهما ضعيفاً يفتقد الثقة والثبات، لكن في الأيام التسعة اللاحقة حشد وراءه أعضاء حكومة الحرب المصغرة، وعبأ الأمة. وفي العشرين من أيلول، ألقى واحدة من أفضل خطبه وأكثرها تعبيراً عن الثقة بصفته رئيساً. فقد خاطب الكونغرس وثمانين مليوناً من الأمريكيين الذين كانوا يشاهدونه على شاشة التلفاز، وتعهد بالرد.

قال: «سوف نوجه الموارد كلها ونضعها تحت تصرفنا. لن أرضخ، ولن أرتاح، ولن أتوانى عن خوض هذا الصراع في سبيل حرية الشعب الأمريكي وأمنه» [2]. في تلك الليلة، ارتج مبنى الكابيتول بعاصفة مدوية من التصفيق، وتلقى الخطاب مديحاً شاملاً تقريباً.

بعد أسبوعين اثنين من وقوع الهجمات الإرهابية، كانت رايس، مستشارة بوش لشؤون الأمن القومي آنذاك، تتلقى إيجازاً في وكالة المخابرات المركزية عن العمليات السرية داخل أفغانستان، حين اتصل بها الرئيس. أراد معرفة هل ستكون المؤسسة العسكرية جاهزة للبدء بقصف أفغانستان على الفور. قالت له مفسرة إن العملية قد تتأخر قليلاً.

قال الرئيس مزمجراً: «لماذا؟ هذا غير مقبول».

انقطع الحديث بينهما بسبب رداءة الخط الهاتفي. وحين وصلت إلى البيت الأبيض، اندفعت بسرعة إلى مكتبها، حيث كان بوش يتصل من مقر إقامته. كررت القول إن العسكر ليسوا مستعدين تماماً.

قال بوش مرة أخرى: «هذا غير مقبول! لماذا؟».

شرحت قائلة إن الولايات المتحدة لا تملك قواعد عسكرية قريبة من أفغانستان، والمعلومات الاستخبارية ضعيفة، والأهداف قليلة، والحالة الجوية تتدهور.

قال لي فيما بعد: «كنت مستعداً للانطلاق بالحملة. هكذا أنا في بعض الأحيان –ناري المزاج... يمكن أن أفقد صبري» [3]. لقد عيل صبره في عشية الحرب الأولى تلك.

ثمة مثال آخر. في الخامس والعشرين من تشرين الأول، بعد بدء حملة القصف الجوي في أفغانستان، ذهبت رايس لمقابلة الرئيس. وذكرت أن عدداً من أعضاء الفريق الحكومي المكلف بإدارة الحرب قد شعروا بالقلق من بطء التقدم في الأسابيع الأولى. واقترحت استنصاحهم في اجتماع مجلس الأمن القومي الذي يعقد في صبيحة اليوم اللاحق. قال لها بوش: «سوف أهتم بالمسألة».

قال بوش في الاجتماع: «أريد تيقن أننا جميعاً متفقون على هذه الخطة». دار حول الطاولة وطلب من كل واحد من الحاضرين توكيد ولائه للخطة. وسأل عن أي أفكار لديهم، لكنني كتبت بعد مقابلة كل من كان حاضراً في الغرفة ما يأتي: «في الحقيقة، لم يفتح الرئيس الباب قيد أنملة لأي شخص يثير أي مخاوف، أو يعرض أفكاراً بديلة. لم يكن يصغي إلى أحد».

قابلت الرئيس أول مرة في المكتب البيضاوي في العشرين من كانون الأول 2001، بعد ثلاثة أشهر من الهجمات الإرهابية. بدا آنذاك أن الحرب في أفغانستان تسير على ما يرام، حيث أطيح بنظام الطالبان، وبذلت جهود واعدة لحرمان القاعدة من ملاذ آمن في البلد. كان بوش سعيداً ومترعاً بالثقة بالنفس، رئيساً شاباً لم يتجاوز الخامسة والخمسين، ومتخماً باليقين. أمر أحد مساعديه بالتوجه إلى مكتبه وسحب ثلاث صفحات تحوي سيراً موجزة لزعماء القاعدة، مرفقة بصور ملونة. أظهر كيف وضع إشارة ضرب (×) كبيرة على صورة كل زعيم إرهابي قتل أو أسر.

«في وقت مبكر، قلت ذات مرة: أنا من مشجعي البيسبول. أريد بطاقة تسجيل عدد الإصابات» [4]. كان يريد حساب أعداد قتلى العدو.

وكانت لديه أهداف رئيسة. «سوف نستأصل جذور الإرهاب أينما وجد»، كما قال. وتطرق إلى إنجاز «سلام في العالم»، وإيجاد وحدة في الوطن. «وظيفة الرئيس هي توحيد الأمة».

قال لي الرئيس بوش ذات مرة عن السبيل الذي اختاره: «أعلم أن من الصعب عليك أن تصدق، لكني لا أشك مطلقاً في ما نفعله. لم أشك قط... لا يوجد أدنى شك في ذهني أننا نفعل الصواب. ولا ذرة شك» [5].

لم يكن من الصعب كثيراً أن أصدق. فقد أبلغني مراراً أن يقينه مصدر قوة ونفع. قال: «يجب أن يكون الرئيس مثل الكالسيوم في العمود الفقري؛ إذا ضعفت يضعف الفريق برمته، إن ملأتني الشكوك، فتوثق أن الشكوك ستنتشر وتعم، إن تراجع مستوى ثقتي بقدرتنا، فسيعم التأثير المؤسسة كلها. أعني أن من الجوهري أن نكون واثقين ومصممين وموحدين».

«لا أحتاج إلى أشخاص حولي يفتقرون إلى الثبات ورباطة الجأش. ولا أحب التردد والحيرة في الأوقات الصعبة».

كرر الحديث عن «غرائزه الفطرية» أو «ردود أفعاله الغريزية» عشر مرات. وقال ذات مرة موجزاً: «لست لاعباً يعتمد على الكتب التعليمية، بل على المواهب الفطرية».

بعد أن عرضت هذه التفاصيل في كتاب «بوش محارباً»، ظن كثير من القراء والنقاد والصحفيين أنني صورت بوش زعيماً قوياً وملهماً. لكن روايتي أظهرت أيضاً أنه لم يكن راغباً بجدل مفتوح وكامل يكشف المخاوف المحتملة ويأخذ بالحسبان البدائل الممكنة. فهو «اللاعب الذي يعتمد على المواهب الفطرية»، و«الكالسيوم في العمود الفقري»، قائد يشتغل وفق مبدأ «عدم الشك».

كتبت أقول: «تعد غرائزه الفطرية طبيعة ثانية له تقريباً» [6]. في حرب أفغانستان، صاغ المؤشر الدال على أن قناعاته سوف تلغي كل شيء آخر وتقهر كل شخص آخر.

في أثناء مقابلة مع بوش في مزرعته في كروفورد (20 آب 2002)، شرح أفكاره عن حرب تشن على العراق، كانت ما تزال على بعد سبعة أشهر.

«فيما يتعلق بالعراق، ربما نهاجمه وربما لا نهاجمه. ليست لدي فكرة بعد. لكن الهدف سيكون جعل العالم أكثر هدوءاً وسلاماً».

«سوف أقتنص الفرصة لتحقيق أهداف كبرى»، كما قال، وتطرق من تلقاء نفسه إلى موضوع كوريا الشمالية. كان قد ربط كوريا الشمالية بالعراق وإيران ضمن «محور الشر» في خطاب حالة الاتحاد في وقت مبكر من السنة. وأوضح دون لبس أن العراق وكوريا الشمالية مرتبطان معاً في ذهنه. مال في كرسيه إلى الأمام وتحدث عن ردة فعله الفطرية إزاء زعيم كوريا الشمالية.

صرخ الرئيس مزمجراً ومهدداً بإصبعه: «أكره كيم جونغ إيل! ثمة رد فعل عميق لدي على هذا الرجل؛ لأنه يجوع شعبه. وشاهدت صوراً من الاستخبارات عن معسكرات الاعتقال –الضخمة– التي يستخدمها لفصم عرى الأسر، وتعذيب الناس. أصبت بالرعب... الشعور عميق. ربما هو ديني الذي أؤمن به، وربما... لكنني أشعر بعواطف حماسية تجاه هذا الأمر». وقال إنهم نصحوه بعدم الاستعجال فيما يتعلق بكوريا الشمالية، لكنه أضاف: «إما أن تؤمن بالحرية و... تقلق على الوضع الإنساني أو لا».

«وبالمناسبة، مشاعري متشابهة تجاه شعب العراق»، كما قال. وأضاف إن صدام حسين يجوع الشيعة في مناطق العراق النائية. «هناك وضع إنساني يجب أن نقلق عليه».

لكن الرئيس أوضح أنه لا يفكر كثيراً في الدبلوماسية. «لا يمكن أن تتبع طريقتك في حل المشكلات». والولايات المتحدة تحمل مسؤولية الزعامة. وهذا ما أطلق «مشاعر الاستياء تجاهنا»، ودفع الناس إلى القول: «بوش يتصرف بطريقة أحادية، وأمريكا تتحرك بطريقة أحادية». وأضاف: «حضرت اجتماعات سمعت فيها عبارات مثل 'يجب علينا عدم التحرك قبل التوصل إلى اتفاق بالإجماع'. حسناً، لن نتوصل أبداً إلى إجماع

شامل على القوة واستخدام القوة». وعلى ما يبدو لا تعد التحالفات الدولية أو الأمم المتحدة من الطرق العملية للتعامل مع الدول المارقة الخطرة، كما قال. «إن العمل الواثق الذي يعطي نتائج إيجابية يوفر نوعاً من التيار الهوائي الخلفي يدفع الدول المترددة والزعماء المحجمين إلى اللحاق بالركب».

مرة أخرى، بدا أن إيمانه الأعمى بغرائزه الفطرية يعني أكثر من مجرد مخاوف حكومة الحرب المصغرة والمجتمع الدولي.

تناول كتابي الثاني عن بوش -«خطة الهجوم»- عملية صنع القرار التي اتبعها الرئيس في أثناء الأشهر الستة عشر الممتدة بين تشرين الثاني 2001 وغزو العراق في آذار 2003. في هذه الحقبة، قدم رمسفيلد وقائد القيادة المركزية آنذاك الجنرال تومي فرانكس قرابة ستة إيجازات عن خطة الغزو. كان كل اجتماع يدور حول كيف نشن الحرب. ولم يعقد اجتماع واحد حول هل نشن الحرب. ولم يضع الرئيس قط صوابيتها موضع المساءلة، وصوابيتها جعلت منها السبيل الوحيد والمسار الأوحد.

اعترف بوش فيما بعد في عدة مقابلات معي بأنه لم يسعَ إلى أي توصيات من أربعة أشخاص مهمين: والده، الرئيس السابق جورج بوش (الأب)، الذي أشرف على حرب الخليج الأولى عام 1991؛ ووزير الخارجية كولن باول؛ ووزير الدفاع دونالد رمسفيلد؛ ومدير وكالة المخابرات المركزية جورج تينيت.

وعندما ألححت عليه في مرات عديدة لمعرفة النصيحة التي قدمها والده حول غزو العراق، تهرب بوش من الأسئلة وأبلغني أنه لا يتذكرها. وأخيراً قال: «يجب عدم اللجوء إليه فيما يتعلق بالقوة، فهو الأب الخطأ. هناك أب أعلى» [7].

ثمة زخم متسارع نحو الحرب وافتقار إلى الحذر والروية من جانب الرئيس. فقد كانت قناعاته الراسخة تدفع المسيرة نحو الحرب مثل قاطرة تزداد سرعة واندفاعاً باطراد.

في مقابلة أجريتها معه في كانون الأول من عام 2003، بعد تسعة شهور من غزو العراق، قال لي بوش: «أعتقد أن من واجبنا تحرير الناس» [8]. أراد تحرير العراقيين من القمع وقال إنه «متحمس» للقيام بذلك. وفي أيار 2008، سألته هل مازال متمسكاً باعتقاده؟

قال: «أجل. لكن من المهم لك أن تفهم أن لدي جملة من المعتقدات التي لا تنتهك حرمتها: الإيمان بالقدرة التحويلية للحرية، والاعتقاد أن البشر سيختارون، لو منحوا الفرصة، المجتمعات الحرة»[9].

لم أشك قط في صدق معتقدات الرئيس وصفاء نيتها. لكن المعتقدات وحدها لا تكفي. فقرار شن الحرب حاسم الأهمية. وتتضاعف الأهمية فيما يتعلق بقرار شن الحرب الاستباقية؛ لأنه يحمل مسؤولية ضخمة.

في كتابي «القادة» الذي صدر عام 1991، وتناول غزو بنما وحرب الخليج الأولى لطرد صدام حسين من الكويت، كتبت أقول: «قرار شن الحرب قرار يعرّف الأمة، أمام العالم والأهم ربما أمام نفسها أيضاً. إذ لا يوجد نشاط آخر أكثر جدية وخطورة للحكومة الوطنية، ولا مقياس أدق وأصدق للزعامة الوطنية».

يجب على الرئيس أن يكون قادراً على امتلاك نظرة واضحة وتقويم نزيه وموضوعي للحرب. يجب على الرئيس أن يقود. وعلى مدى سنين عديدة، أظهر الرئيس بوش مراراً وتكراراً نفاد صبر، وعنترية، ويقيناً شخصياً مزعزعاً فيما يتعلق بقراراته. وكثيراً ما كانت النتيجة اندفاعاً وتهوراً وإهمالاً، والأشد إثارة للقلق ربما، رد فعل متأخر على الوقائع والحقائق والنصائح التي تناقض غرائزه الفطرية.

تبدى ذلك بأوضح صورة في السنوات الثلاث التي أعقبت الغزو، الحقبة التي تناولها كتابي الثالث عن بوش: «حالة إنكار»، الذي نشر في أيلول من عام 2006. إذ لم يعترف بوش وإدارته علناً بحدة العنف المتصاعد وتدهور الوضع في العراق. قلت في آخر سطر من الكتاب: «على الرغم من تفاؤل بوش وكلامه المتخم بالبهجة والانشراح، لم يكشف للرأي العام الأمريكي حقيقة ما وصلت إليه حال العراق».

وأظهر عملي على هذا الكتاب في أثناء جمع مادته أن الحالة كانت أسوأ مما تخيلت.

من بعض الجوانب، لم يتغير بوش كثيراً منذ مقابلتي الأولى معه في العشرين من كانون الأول 2001. إذ يبقى رجلاً دون شكوك، ويتبع غرائزه الفطرية، وعلى قناعة بصوابية

السبيل الذي اختاره. لكن من جوانب أخرى، كان الرئيس البالغ من العمر واحداً وستين عاماً الذي قابلته في أيار عام 2008 مختلفاً كلية. ولم يكن الاختلاف ناتجاً عن التقدم في العمر فقط. فمن غير المفاجئ أن الرئاسة قد أنهكته، وسبع سنوات من الحرب أثرت فيه. غزا الشيب رأسه، وزاد عمق التجاعيد في وجهه. ومع أنه يتمتع ببعض اللياقة البدنية في هذه السن، إلا أن من الممكن ملاحظة بطنه البارز، وترهل جسمه حين يجلس.

في أثناء السنوات الأولى من حرب العراق، اعتاد الرئيس دوماً التحدث عن «الفوز» أو «النصر». وبحلول عام 2008، أخذ يخفف من غلواء توقعاته على ما بدا آنذاك. حين نطق مرتين في المقابلة الأخيرة كلمة «فوز» صححها على الفور إلى كلمة «نجاح» في كل مرة. وكان ذلك ذكاء منه، لكنه أيضاً يمثل تحجيماً لخطابه الناري الذي استخدمه ذات يوم.

منذ آذار عام 2003، حين أصدر الرئيس الأمر بغزو العراق، خدم قرابة نصف مليون من الجنود الأمريكيين (رجالاً ونساء) هناك. وقتل أكثر من 4100 منهم، في حين أصيب 30 ألفاً بجراح خطرة. وقتل عشرات الألوف من العراقيين. وعند كتابة هذه الصفحات في بداية صيف عام 2008، بلغ عدد الجنود الأمريكيين العاملين في العراق 140 ألفاً.

في مقابلتنا الأخيرة، تحدث الرئيس بهياج وانفعال عن اعتقاده بوجود طبقة من «النخبة» في أمريكا تحسب أنه لا يستطيع أن يفعل الصواب. أصبح أكثر حذراً من ذي قبل، وكثيراً ما أجاب إنه لا يتذكر التفاصيل، وكرر تأكيد كم مرة حول القرار إلى ستيف هادلي. ثمة شعور بالتسليم والإذعان يتملكه، كأنما أدرك ضآلة التغيير الذي يمكن أن يحدثه في الأشهر الثمانية الباقية من مدة رئاسته.

أو أصر بدلاً من ذلك على أنه «شُغل» بالحرب، و«راجع تطوراتها كل يوم»، قبل أن يضيف: «لكن اعلم أنني لم أكن أجلس خلف مكتب منهمكاً كلية بالعراق؛ لأن على الرئيس أداء عديد من المهمات الأخرى»[10].

قصر بوش عن بلوغ أهدافه الطموحة التي وضعها عام 2001. إذ لم يوحد البلد بل عمق انقساماته، وتحول هو نفسه إلى رمز لانقسام الأمة. حتى الرئيس يعترف بأنه فشل

في «تغيير نبرة الخطاب في واشنطن»[11]. ولم يستأصل الإرهاب من جذوره حيثما وجد. ولم ينجز السلام في العالم. ولم يحقق النصر في حربيه الاثنتين.

* * *

في السابع من آب 2007، ذهبت أنا ومساعدي برادي دينيس لمقابلة وزير الدفاع السابق روبرت مكنمارا، أحد مهندسي حرب فيتنام. أقر مكنمارا في كتابه «بالنظر إلى أحداث الماضي» (1995) بأخطاء الماضي واستنتج أن الولايات المتحدة كان بإمكانها الانسحاب من فيتنام في وقت أبكر دون أن تسبب هذه العاقبة الوخيمة لأمنها القومي.

جلسنا مع مكنمارا في غرفة المعيشة التي غطيت أرضيتها بالسجاد الأبيض في شقته في ووترغيت. ومع أنه بلغ الحادية والتسعين، إلا أن ذهنه احتفظ بحيويته، وظل الحماس يلمع في عينيه الزرقاوين. وعلى مدى الساعات الثلاث التي استغرقتها المقابلة، كرر مكنمارا العودة إلى موضوع واحد: لم توضع الاختلافات الكبرى على حرب فيتنام على الطاولة أمام الرئيس جونسون، خصوصاً في حضور كبار مستشاريه كلهم. ولم يعبر سوى قلة قليلة منهم عن تحفظاتهم، ولم يسع الرئيس إليها أصلاً.

«أنا متيقن تماماً أن معظم الزعماء يرغبون بتجنب المواجهة بين كبار مساعديهم، خصوصاً أمامهم؛ وهذه نقطة ضعف خطرة. أعتقد أن على كل زعيم إجبار كبار معاونيه على مواجهة القضايا الكبرى أمامه»، كما قال مكنمارا. الرؤساء يريدون الانسجام، «ويبتعدون عن النزاع والمواجهة». واعتقد أن ذلك يسبب ضرراً وأذى.

قال مكنمارا إنه كان موالياً لليندون جونسون ومخلصاً له آنذاك عبر اتباع سياسة الرئيس المتعلقة بالحرب، كما يعتقد. «حين أنظر إلى الماضي، أتمنى لو كنت أكثر إلحاحاً وعزماً على إجبار جونسون على التصدي لهذه القضايا». وحين أعلن استقالته عام 1967، قال: «أحجمت في النهاية عن فضح الاختلافات القائمة. فقد أقلقني خروجها عن السيطرة، وأقلقني أنها ستجعل وظيفة الرئيس أكثر صعوبة؛ لأن [المذكرات الداخلية السرية] تشير أساساً إلى أننا نخسر الحرب».

ثمة سؤال واحد أخير: من يدفع ثمن الحرب؟ لا أعني مليارات الدولارات التي أنفقت كل سنة، بل التكلفة البشرية. التكلفة التي تحملها مئة وأربعون ألفاً من الجنود الذين خدموا في العراق وأحباؤهم وأعزاؤهم. فهم الذين خسروا أعضاءهم، وحياتهم، وسنوات عمرهم حين أُرسلوا للقتال في آخر العالم. صنف أحد أصدقائي الحالة في خانة «موجة البؤس البشري»، التي تنتشر ببطء، وبصمت وهدوء عبر كل ركن من أركان أمريكا، دون أن يشعر بها غالبية الأمريكيين في معظم الأحوال.

أولئك الذين شاركوا في الحرب كانوا مع أسرهم وكلاء عن الأمريكيين كلهم. فقد تحملوا المخاطرة والإنهاك والتوتر طوال سنة أو أكثر من الخدمة في أرض أجنبية يجتاحها العنف. وكثير منهم قضوا شبابهم وأراقوا دماءهم في ساحات قتال بعيدة عن أرض الوطن. فبماذا ندين لهم؟ بكل شيء. وماذا قدمنا لهم؟ أقل كثيراً مما يستحقون.

نادراً ما صارح الرئيس بوش عامة الناس وشرح لهم ماذا يفعل وما الذي يجب توقعه. لم يطلب التضحية من غالبية الأمريكيين حين سنحت له الفرصة. ولم يحشد حتى حزبه. وكثيراً ما عبر الجمهوريون عن شكهم وارتيابهم مثلهم مثل الديمقراطيين.

نادراً ما جسد الرئيس صوت الواقع في حرب العراق.

ثمة موسوعة من الدروس والعبر ليتعلمها الرئيس القادم من إدارة بوش للحرب. وربما يكون أولها كشف الحقيقة أمام عامة الناس، مهما كانت جارحة ومؤلمة ومهما لفها الغموض وعدم اليقين. في صيف خريف عام 2006 وأوائله، حين اتضح إخفاق الولايات المتحدة في العراق، كان الشعب الأمريكي سيبتهج على الأرجح لو صارحه الرئيس بالحقيقة، واعترف أمامه معرفته فشلَ الإستراتيجية، وأنه بدأ مراجعة مكثفة لها.

يصيب الرئيس حين يقول إن اتخاذ القرارات يجب ألا يعتمد على استطلاعات الرأي أو الجماعات التمثيلية. لكن في النظام الديمقراطي، يجب عدم الكذب على عامة الناس أو «تلفيق» الحكايات لهم. فقد أقلق الإدارة كثيراً افتضاحُ قصة الجدل والخلاف بين أعضائها في سنة الانتخابات «الحساسة»، ولم تركز اهتماماً كافياً على

الحرب نفسها. وقرار عدم كشف الحقيقة جعل الرئيس يتخلى عن أعظم مصادر قوته: تأييد عامة الأمريكيين.

سألني لاحقاً واحد من المسؤولين المشاركين طوال سنين في عملية اتخاذ القرار المتعلقة بحرب العراق: «متى قرر أن يصبح قائداً عاماً؟ هذا هو السؤال».

الإجابة تشير إلى أن هناك لحظات، لكنها قليلة جداً. فبعد أن أمر الرئيس بالغزو، أمضى ثلاث سنوات في حالة إنكار، ثم وكل إلى مستشاره لشؤون الأمن القومي إجراء مراجعة للإستراتيجية. لم يكن يتحمل المواجهات والمجادلات المتعمقة. إذ لم يتحدد موعد نهائي، فلا داعي للاستعجال. انخرط الرئيس في الحرب خطابياً وبلاغياً، لكن حافظ على انفصال غريب عن إدارتها. لم يتعامل معها مباشرة بنحو كامل، وعلى مدى سنوات الحرب كثيراً ما فشل في القيادة.

بعد أن أصبحت رئاسة بوش من الماضي، ستتحول الحربان اللتان شنهما إلى جزء من قصة رئيس آخر.

سألت بوش في أثناء آخر لقاء معه في الحادي والعشرين من أيار 2008: «السؤال الأهم فعلاً هو: هناك رئيس منتخب سوف يأتي إلى هنا. وبوصفك رئيساً، وليس عضواً ديمقراطياً أو جمهورياً، ما الذي ستقوله للرئيس الجديد حول تركتك في العراق؟».

فكر لحظة: «ما أقوله له هو: لا تدع المسعى يفشل».

لكل شخص نواقص وعيوب. لكن نواقص الرئيس وعيوبه تصيب بأذاها الأمة بأسرها، وعندما يشن حرباً كبرى، يعم ضررها العالم برمته.

سوف يواجه الرئيس القادم مجموعة معقدة من التحديات المؤسسية والعسكرية والسياسية والقيادية بسبب حرب العراق. ولن تحل بالشعارات أو بالعقائد الحزبية أو بالأمنيات والأماني. وحين يدخل الرئيس القادم إلى المكتب البيضاوي في العشرين من كانون الثاني 2009، ويسبر ما ورثه، أظن أنه سيشعر بجدية المشكلات التي تركت دون حل وخطورتها.

هوامش:

أتت المعلومات الواردة في هذا الفصل أساساً من مقابلات شخصية مع ثلاثة من المصادر المطلعة.

1- انظر:

Amit R. Paley and Karen DeYoung, «Key Iraqi Leaders Deliver Setbacks to U.S.,» Washington Post, June 14, 2008, P. A1.

2- Presidential Documents, September 20, 2001, pp. 1347-1351 (Vol. 37, No. 38), www.gpoaccess.gov/wcomp/v37no38.html

3- مقابلة مع الرئيس بوش، 20/8/2002.

5- مقابلة مع الرئيس بوش، 20/12/2001.

5- المصدر السابق.

6- انظر: Bob Woodward, Bush at War, P. 342.

7- مقابلة مع الرئيس بوش، 11/12/2003.

8- المصدر السابق.

9- مقابلة مع الرئيس بوش، 20/5/2008.

10- مقابلة مع الرئيس بوش، 20/5/2008.

11- مقابلة مع الرئيس بوش، 21/5/2008.

مسرد

القاعدة: منظمة عالمية إرهابية يرأسها أسامة بن لادن.

القاعدة في العراق: منظمة إرهابية محلية مرتبطة بالقاعدة برزت بعد الغزو الأمريكي للعراق في آذار 2003.

حزب البعث: الحزب الحاكم في العراق برئاسة صدام حسين: 1968-2003.

كتيبة: وحدة في الجيش الأمريكي أو مشاة البحرية تتألف من عدد يراوح بين 600-800 جندي.

لواء: وحدة في الجيش الأمريكي أو مشاة البحرية تتألف عادة من 3000 أو أكثر من الجنود.

القيادة المركزية: قيادة عسكرية أمريكية مسؤولة عن الشرق الأوسط وجنوب آسيا، يقع مقرها في تامبا (بولاية فلوريدا).

سلطة التحالف المؤقت: سلطة برئاسة بول بريمر كانت مسؤولة عن العراق المحتل بين أيار 2003 وحزيران 2004.

حزب الدعوة: حزب شيعي صغير في العراق، ينتمي إليه رئيس الوزراء نوري المالكي.

وكالة استخبارات الدفاع: وكالة استخبارات تنسيقية في وزارة الدفاع تقدم التقارير لوزير الدفاع، لكنها خاضعة لسلطة مدير الاستخبارات الوطنية.

اجتثاث البعث: سياسة طرد أعضاء حزب البعث من مواقع المسؤولية في الحكومة والجيش والمدارس.

مجلس سياسة الدفاع: مجموعة من المسؤولين السابقين، والضباط المتقاعدين، وغيرهم من الخبراء الذين يقدمون المشورة المتعلقة بالسياسة لوزير الدفاع.

مدير الأمن الوطني: منصب أنشئ عام 2005 مهمته الإشراف على/وتوجيه أنشطة مختلف وكالات الاستخبارات.

القذائف الصاروخية المتفجرة: قذائف قادرة على اختراق الدروع تعد أشد فتكاً من العبوات الناسفة المحلية الصنع (التقليدية).

مجلس التعاون الخليجي: مجموعة إقليمية تتألف من الإمارات العربية المتحدة، والسعودية، وعمان، وقطر، والكويت.

المنطقة الخضراء: معروفة أيضاً باسم المنطقة الدولية. منطقة محصنة في وسط بغداد حيث تقع مقرات الحكومة العراقية والسفارة الأمريكية.

العبوات الناسفة المحلية الصنع: متفجرات محلية مصنوعة من الذخائر وغيرها من المتفجرات القديمة، استخدمتها القاعدة والجماعات المتمردة على الطرقات أو جوانبها.

مجموعة دراسة الوضع في العراق (لجنة بيكر-هاملتون): مجموعة تضم أعضاء من الحزبين تأسست في آذار 2006، ووُكلت إليها مهمة إجراء تقويم مستقل للوضع في العراق.

جيش المهدي: مليشيا يرأسها رجل الدين الشيعي المتطرف والمعادي للأمريكيين مقتدى الصدر.

فريق التقويم الإستراتيجي المشترك: مجموعة قدمت المشورة للجنرال بترايوس في العراق في أوائل عام 2007.

اللجنة الوزارية المعنية بالأمن القومي: مجلس رفيع المستوى معني بالسياسة في العراق.

القيادة الأمنية المؤقتة المتعددة الجنسية – العراق: الفرع التدريبي التابع للجيش الأمريكي المسؤول عن تأسيس جيش عراقي جديد وقوة شرطة جديدة.

وكالة الأمن الوطني: وكالة مسؤولة عن التنصت على الاتصالات الأجنبية وحماية الاتصالات وأنظمة الشِّفرة السرية للولايات المتحدة.

مجلس الأمن القومي: يضم الرئيس وكبار صناع السياسة الخارجية، ومنهم نائب الرئيس، ووزيرا الخارجية والدفاع، ورئيس هيئة الأركان المشتركة، ومدير الاستخبارات الوطنية. يرأس المجلس مستشار شؤون الأمن القومي.

عملية حرية العراق: الاسم الذي أطلق على الغزو الأمريكي عام 2003 والعمليات العسكرية الأمريكية اللاحقة في العراق.

عملية معاً إلى الأمام: خطة أمنية من مرحلتين لم تحقق نجاحاً يذكر في تقليص حدة العنف في بغداد (حزيران 2006 – تشرين الأول 2006).

فرق إعادة الإعمار في المحافظات: فرق مدنية تابعة لوزارة الخارجية الأمريكية كلفت بمهمة تنسيق عمليات إعادة الإعمار ومعالجة المسائل الحكومية على مستوى المحافظات العراقية.

المجلس الأعلى للثورة الإسلامية في العراق: أبرز الأحزاب الشيعية في العراق وأكبرها. أعيدت تسميته بالمجلس الأعلى الإسلامي العراقي.

نظام الفيديو الآمن: نظام سمعي بصري آمن للاتصال بين واشنطن وبغداد.

الدبابة: غرفة اجتماعات في البنتاغون يستخدمها رؤساء الأركان.

ملحوظات

ملحوظة على المصادر

عُدّت المداولات الداخلية التي أجرتها إدارة بوش حول حرب العراق سرية كلها تقريباً. وفي وقت مبكر من عملية جمع مواد هذا الكتاب، تمكنت من الحصول على وثائق وفرت لمحات خاطفة عن كيفية ارتقاء عملية صنع القرار في عامي 2006 و2007. وافق البيت الأبيض على نزع الصفة السرية عن عشر من الوثائق بعد استقصاءاتي الأولية، واستطعت الحصول على عشر أخرى بطريقة مستقلة.

حصلت على معظم المعلومات الواردة في الكتاب من مقابلات شخصية أجريتها مع أكثر من مئة وخمسين شخصاً، منهم أعضاء فريق الأمن القومي، وكبار المساعدين وغيرهم من اللاعبين الأساسيين المسؤولين عن الاستخبارات، والدبلوماسية، والعمليات العسكرية في حرب العراق. وكوّن المسؤولون المطلعون اطلاعاً مباشراً على اللقاءات، والاجتماعات، والوثائق، والأحداث على مختلف مستويات موظفي البيت الأبيض، ووزارتي الدفاع والخارجية، والوكالات الاستخبارية، مصادر رئيسة أيضاً.

أجريت معظم المقابلات على أساس إمكانية استخدام المعلومات بشرط عدم ذكر أسماء المصادر في الكتاب. وقابلنا، أنا أو مساعدي في البحث برادي دينيس، كثيراً من المصادر مرات عدة، وصلت أحياناً إلى ست مرات أو أكثر. وسمح لنا الجميع تقريباً بتسجيل المقابلات بحيث يمكن رواية القصة بطريقة كاملة ودقيقة، بالألفاظ المستخدمة ذاتها.

قابلت الرئيس بوش رسمياً في المكتب البيضاوي طوال ثلاث ساعات يومي 20-21 أيار 2008. وعلى وجه الإجمال، التقيت به ست مرات لسؤاله عن حربي أفغانستان والعراق،

بلغت مدتها إحدى عشرة ساعة. وأشرت في الهوامش إلى المقابلات الماضية التي أخذت منها المادة الضرورية لهذا الكتاب.

فضلاً على ذلك كله، أتت معلومات حاسمة الأهمية من مصفوفة متنوعة من الوثائق – مذكرات، رسائل، ملحوظات شخصية، ملخصات، شرائح (سلايدات) بوربوينت، رسائل بالبريد الإلكتروني، مجلات، لوائح بالأحداث مرتبة بحسب تاريخ وقوعها، أجندات. وحين أردنا الاستشهاد بالوثائق، حصلنا على الوثائق الأصلية أو نسخ منها.

أتى الحوار المستخدم في الاجتماعات أو المحادثات من واحد على الأقل (أو أكثر عادة) من المشاركين، إضافة إلى مذكرات مكتوبة أو ملحوظات متزامنة. وحين تنسب الأفكار أو الاستنتاجات أو المشاعر إلى أحد المشاركين، فهذا يعني الحصول على وجهة النظر من الشخص المعني مباشرة، أو من سجل مكتوب، أو من زميل سمع منه ذلك. واستخدمت علامات الاقتباس حين ارتأيت أن السجل المكتوب أو الذكريات كانت دقيقة إلى حد مبرر لاستخدامها. ولم تستخدم هذه العلامات حين كان المصدر غير متوثق من الكلمات الصحيحة أو حين يكون التوثيق غير واضح.

حاولت الحفاظ على لغة الشخصيات الرئيسة والمصادر المهمة كما هي بقدر الإمكان، واستخدمت كلماتهم حتى حين لا يستشهدون بها مباشرة؛ لكي تعبر عن سمة كلامهم ونكهته المميزة إلى أقصى حد ممكن.

لا يمكن لأي مراسل أن يعيد رواية الأحداث التي مرت عليها شهور أو حتى سنوات بنسبة 100% من الدقة. فالذاكرة البشرية غير معصومة عن الزلل والخطأ، وكثيراً ما يبدو الماضي مختلفاً حين نراه من منظور الحاضر. وعبر التوثق من عديد من المصادر ومقارنة رواياتهم بالسجلات المكتوبة، حاولت تقديم رواية وصفية دقيقة وصحيحة بقدر الإمكان.

أدرك أن هذا الكتاب أكثر دقة من سابقه في رواية التاريخ؛ لأنه يقدم استقصاء متعمقاً للمداولات التي أدت إلى زيادة عدد القوات في العراق. لقد حاولت، كما فعلت دوماً، الحصول على أفضل نسخة متاحة عن الحقيقة.

كلمة شكر

مع أن هذا الكتاب اعتمد اعتماداً كلياً تقريباً على ما قمت به من دراسة وبحث واستقصاء للوثائق، إلا أني أعبر عن شكري العميق لهؤلاء الصحفيين الذين تابعوا حرب العراق ونقلوا أخبارها. فما قدموه من معارف ومعلومات كوّن ركيزة لا غنى عنها للكتاب.

في عام 2007، توصل «مشروع الامتياز في الصحافة» إلى نتيجة مفادها أن حرب العراق أصبحت واحدة من أخطر الحروب في التاريخي الأمريكي على المراسلين، ووثقت «لجنة حماية الصحفيين» مقتل أكثر من مئة وخمسة وعشرين مراسلاً يؤدون واجبهم في العراق. ندين لهؤلاء بالفضل ولن نستطيع رد جميلهم.

أتوجه بالشكر الجزيل إلى «المصادر» كلهم، الذين تحلوا بالصبر وتحملوا عناء المقابلات الطويلة والجلسات العديدة لتزويدي بالوثائق الرسمية والشخصية. وبغض النظر هل ذكرت أسماءهم أم لا، فإني أقدر استعدادهم لركوب المخاطرة الكامنة في المشاركة في مشروع كهذا، خصوصاً حين يتعلق بحرب خلافية في سنة الانتخابات. فمن الشجاعة بمكان السماح لمراقب «خارجي» بالدخول، وآمل أن يشعر المؤرخون الذين سيدرسون حرب العراق في المستقبل والأحداث العاصفة المحيطة بها، بالشكر والتقدير لإسهام هؤلاء.

عملت مع أليس مايهيو المحررة في دار سايمون أند شوستر طوال ست وثلاثين سنة نشرت في أثنائها أربعة عشر كتاباً. وانهمكتْ في هذا المشروع بالقدر ذاته من الحماس والتركيز والانتباه للتفاصيل، كحالها عام 1972، حين بدأت أنا وكارل بيرنستاين العمل معها على كتاب «رجال الرئيس كلهم». ظلت أليس على الدوام معيناً لا ينضب للطاقة

والأفكار، ورمزاً للنزاهة التي لا تتزعزع، والبحث الدؤوب عن أوضح منظور ممكن للأحداث كما وقعت. أدركت بسرعة أن روح هذا الكتاب تكمن في طبيعته الحرفية، حيث استمدت مادته كلها من الوثائق والأشخاص المعنيين بطريقة مباشرة. وهي تعي مثلي حجم عملية صنع القرار الموثقة في هذه الصفحات، إضافة إلى الاعتقاد المشترك بضرورة النزاهة والموضوعية في رواية الأحداث وضمان إتاحة الفرصة للمعنيين كلهم بالتعبير عن رأيهم.

يدير ديفيد روزنثال وكارولين ريدي أفضل دار نشر في أمريكا: سايمون أند شوستر. فهما من المديرين الذين يهتمون بعملهم وكتبهم اهتماماً شخصياً، ويظهرون التزاماً عنيداً بالتعديل الأول من الدستور إلى حد كان سيجعل توماس جيفرسون يشعر بالارتياح والثقة. أما روجر لاربي فيتميز بالجد والدأب والانتباه لأدق التفاصيل، وتلك سمات جعلته معلماً لا يجارى في مجال التحرير والتدقيق والتصحيح القائم على التفكير الحصيف. أدين بالشكر الجزيل إلى المديرين والمسؤولين والعاملين في دار سايمون أند شوستر كلهم، وأخص بالذكر: إليسا ريفلين، وفيكتوريا ماير، وتريسي غيست، وجاكي شو، وإيرين كيرادي، ومايكل زيربان، وكارين تومبسون، وبول ديبوليتو، وليزا هيلي، ونانسي إنغليس، ولين أندرسون، وجون واهلر.

نقدر، أنا وبرادي دينيس وإيفلين دوفي، تقديراً عميقاً جهد مصحح التجارب الطباعية فريد تشيس، الذي ترك أسرته ومنزله في تكساس ليسافر إلى واشنطن ويعمل على كتابه الخامس معي. أمتعنا وجوده بيننا، وكان جزءاً لا يتجزأ من هذا الكتاب. تميز كعهده دوماً بحرفيته ومهارته، وأثبتت ملحوظاته ورُؤاه وأحكامه السديدة أن التحرير يتجاوز بمراحل العلامات التي توضع على الصفحات.

قبل ثماني سنين، ذكرت في كتابي «مايسترو»، الذي تحدثت فيه عن ألان غريسبان والاحتياطي الفيدرالي، أن صحيفة واشنطن بوست قد أتاحت لي أكبر قدر من الحرية في تاريخ الصحافة الأمريكية. توسعت تلك الحرية بمرور الوقت، وأعبر عن الفضل والشكر الجزيل للصحيفة. وما تزال واشنطن بوست مستمرة في لعب دور محوري ولا غنى عنه في السياسة والحياة في واشنطن. دون غراهام، المدير التنفيذي في الصحيفة، إنسان

طيب النفس رقيق الطبع ورجل أعمال أريب، وفي بحث دائم عن المهمشين والمستضعفين والمغلوبين على أمرهم، وهو صوت من لا صوت لهم. مدير فريد لا يضاهيه أحد في سخائه وكرمه وتعاطفه. أما ليونارد داوني، مدير التحرير التنفيذي في الصحيفة، وأفضل رجل صحافة في أمريكا، فهو على وشك التقاعد بعد حياة مهنية مشهودة واستثنائية. فجوائز بوليتز الخمس والعشرون التي حصلت عليها الصحيفة في أثناء عمله فيها تعد شهادة دامغة على عزمه وتصميمه ومهارته. في حين تظهر ناشرة الصحيفة، كاثرين ويموث، جميع دلائل الالتزام بالاستقلالية والصحافة الجريئة التي تقاسمتها مع خالها دون غراهام، وجدّتها كاثرين غراهام.

أعبر عن شكر خاص لستيف لوكسنبيرغ على تكريس وقته، وتركيز جهده، وذكائه اللماح حين ساعدني على إرسال مقتطفات من هذا الكتاب إلى صحيفة واشنطن بوست.

لقد زودني عمل عدد من مراسلي واشنطن بوست، الذين تابعوا أخبار الحرب من العراق وواشنطن، بكثير من الرؤى الثاقبة. يشمل العدد (لكن لا يقتصر على): راجيف تشاندراسيكاران، وجون وارد أندرسون، وآن سكون تايسون، وكارين دي يونغ، وجوش وايت، وجوشوا بارتلو، وناصر نوري، وتوماس كيكس، وآن هول، وآميت بالي، وسودارسان راغافان، ومايكل أبراموفيتز، وبيتر بيكر، وإلين نيكماير، وجوناثان وايزمان. وقدم لي كثير من الزملاء المساعدة والتشجيع، عبر تغطية يومية وعبر تقاسم المشورة والأفكار. ومن هؤلاء: آل كامين، وسوزان غلاسر، وديفيد إغناتيوس، ودانا بريست، وغلين كيسلر، وديفيد هوفمان، وجوبي واريك، وريك أتكينسون.

الشكر كل الشكر أيضاً لميشيل دو سيلي ووندي غالييتا في صحيفة واشنطن بوست على المساعدة الحرفية الماهرة فيما يتعلق بالصور التي يضمها الكتاب، وإلى لاريس كاركليس على الخريطة.

أتوجه بالشكر إلى كارل بيرنستاين، الذي جمعتني به صداقة امتدت ستة وثلاثين عاماً. فقد كان مطلعاً على كل ما يحدث في السياسة الأمريكية، وقدم لي كثيراً من

الأفكار والتحليلات الثاقبة عن بوش والحرب. وما زالت رابطة الصداقة والزمالة تجمعنا على مدى العمر.

أشكر من الأعماق بن برادلي، الذي رفع معيار الأداء لنا جميعاً، ويبقى واحداً من الآباء المؤسسين لصحيفة واشنطن بوست.

لا يمكن لعمل بهذا الحجم والمدى أن تجمع مادته من فراغ. وأدين بالفضل لكثير من الكتب والمقالات المنشورة في الصحف والمجلات التي أضافت خلفية أو تفاصيل مهمة لعملي. لقد اعتمدت على التقارير الممتازة والتحليلات المتعمقة لعشرات المؤسسات الصحفية، ومنها نيويورك تايمز، وول ستريت جورنال، لوس أنجلوس تايمز، نيوزويك، أسوشييتدبرس. وتعد الكتب الآتية مراجع مفيدة:

The Iraq Study Group Report by James Baker, Lee Hamilton, et al.; In the Company of Soldiers by Rick Atkinson; The U.S. Army/Marine Corps Counterinsurgency Field Manual; Fiasco by Thomas Ricks; Dead Certain: The Presidency of George W. Bush by Robert Draper; Cheney: The Untold Story of America's Most Powerful and Controversial Vice President by Stephen F. Hayes; Condoleezza Rice: An American Life by Elisabeth Bumiller; and From the Shadows by Robert Gates.

وجدت أيضاً موقع معهد دراسات الحرب على الويب (www.understandingwar.org) وموقع (www.smallwarsjournal.com) مفيدين كثيراً.

يعد روبرت بارنيت، وكيلي ومحاميّ وصديقي، مؤسسة في واشنطن. إذا لا يضاهيه أحد في صلاته ومعارفه وحكمته. ولأنه يمثل سياسيين بارزين من الحزبين كليهما، منهم السناتور هيلاري كلينتون، والسيناتور باراك أوباما، لم أستشره حول محتوى هذا الكتاب ولم يشاهد الكتاب حتى طبع. الشكر كل الشكر لبراندان سوليفان، صخرة مهنة المحاماة، على تقديم نصيحته المهمة.

نشعر، أنا وبرادي وإيفلين، بالشكر والفضل لوجود روزا كريولو وجاكي كراون بيننا. فقد قدمت كل منهما المشورة والنصح، وساعدت على لحمة العمل وتماسكه عبر ألف طريقة وطريقة.

أمضت ابنتي الكبرى، تالي، أسبوعين اثنين في قراءة المخطوط، وقدمت كثيراً من الرؤى المهمة. تالي شابة بارعة وذكية، وكشف ما أجرته من تصحيحات وما قدمته من اقتراحات عن قدرة وتصميم على جعل تعقيدات الأمن القومي التي ناقشها الكتاب سهلة وميسرة ومتاحة لأكبر عدد ممكن من القراء. أما ابنتي الصغرى، ديانا، فقد نجحت في الصف الخامس وأمتعتنا بدعاباتها على مدى ساعات لا تعد ولا تحصى.

تميزت زوجتي، إلسا والش، بقدرة لا تصدق على تحمل ساعات العمل على جمع مادة كتاب بهذا الحجم. فهي مرساة الهدوء والسكينة في حياتي، ولم تكل من الإجابة عن الأسئلة، وحل المجادلات. وهي رمز الشراكة في الحب والحياة والعمل.

أخيراً، حين كنت أعمل أنا وبرادي وإيفلين على هذا الكتاب في مكتبي في الطابق الثالث من بيتي في واشنطن، كثيراً ما عادت أفكارنا إلى الآلاف المؤلفة من إخواننا المواطنين الذين تطوعوا لخدمة وطنهم. وألّف كل منا رابطة دائمة مع كل واحد من هؤلاء الرجال والنساء. وتبين لنا أن النموذج الذي جسدوه يدعونا إلى التواضع والرهبة أمامهم وأمام أسرهم.

في شهر تشرين الثاني 2006، أخذني صديقي ريك أتكينسون إلى مقبرة آرلينغتون الوطنية. وزرنا القسم رقم 60، حيث يدفن الجنود الذين يقتلون في أفغانستان والعراق. وجدنا في «الفدان الأشد إثارة للحزن في أمريكا» كما دعاه أتكينسون، صفوفاً جديدة من القبور تضاف واحداً إثر الآخر. في ذلك اليوم، التقينا بتيريزا آركيولا، التي قتل ابنها في العراق ولّما يبلغ العشرين. أحضرت معها كتابه المفضل في طفولته، وقرأت منه جهراً أمام ضريحه. ثم طلبت مني طلبها البسيط ذاته من كل من تحكي له قصة ابنها: «تذكره... واحترمه... وافتخر به».